الأسرار البلاغية للتقديم الذكري في القرآن الكريم
(دراسة تحليلية نموذجية)
(Rhetorical Significations of *Taqdīm Dhikrī* in Holy Quran: An Analytical Study)

*حبيب الله خان
**محمد أيوب الرشيدي

Abstract

This study intends to draw out different aspects of meanings in connection with their utterance, sounding, intonation and stressing. They do not come to mind but according to their utterance and pronunciation. *Imām Sayūtī, Zarkashī* and many other scholars have discussed these types of meanings in detail. Therefore, they put some vulnerable principles and doctrines which they were mounted in. This study discusses them through analyzing *Qur'ānic* verses.

Keywords: *Quran*, *Taqdīm Dhikrī*, Rhetoric, Context, *Naẓm*

آثرت أن تكون دراستي هذه للتقديم في نظم القرآن الكريم محصورة في ذلك النوع من النظم الذي لا تحكم ترتيب ألفاظه قواعد النحاة، ولا يترتب على مخالفة نظمه إخلال بدلالات الألفاظ على المعاني، أو نُتوء في نسيج العبارة وتلاحم أجزائها، فالتقديم كما قال ابن الأثير: ضربان الأول: يختص بدلالة الألفاظ على المعاني، ولو أخر المقدم، أو قدم المؤخر لتغير المعنى، والثاني: يختص بدرجة التقدم في الذكر، لاختصاصه بما يوجب له ذلك، ولو أخر لما تغير المعنى۔ [1]

---

* أستاذ مساعد فى كلية اللغة العربية بالجامعة الإسلامية العالمية ، إسلام آباد

** أستاذ مساعد فى كلية اللغة العربية بالجامعة الإسلامية العالمية ، إسلام آباد

[1] نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني (ابن الأثير الكاتب)، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق۔ محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الأولى (بيروت- لبنان: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، 1420ھ)، 2/ 384 -

ولعل مراد ابن الأثير بعدم تغيير المعنى عند تأخر الكلمة عدم تغيير أصل المعنى، أي المعنى الأول، أما صورة المعنى – أي المعنى الثاني – فلا بد من حدوث تغيير فيه عند تأخير الكلمة .

الضرب الثاني: هو مجال دراستنا في هذا المقال؛ لأن هذا النوع من التقديم باب غني باللطائف، ولدقته قصر السهيلي حديثه عليه، وذلك في أثناء شرحه عبارة الإمام سيبويه: "كأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم وهم ببيانه أعنى" - هذه العبارة التي بنى عليها الإمام عبد القاهر الجرجاني حديثه عن مسائل التقديم في الرتبة – قال السهيلي: "إنهم يقدمون في كلامهما هم به أهم، وهو ببيانه أعنى، وإن كانا جميعا يهمناهم ويعنيانهم – هذا لفظ سيبويه – وهو كلام مجمل يحتاج إلى بسط وتبيين، فيقال: متى يكون أحد الشيئين أحق بالتقديم، ويكون المتكلم ببيانه أعنى؟ والجواب: أن هذا أصل يجب الاعتناء به لعظم منفعته في كتاب الله – تعالى -، وحديث رسول الله – ﷺ – إذ لا بد من الوقوف على الحكمة في تقديم ما قدم في القرآن وتأخير ما أخر، كنحو "السمع والبصر" و "الظلمات والنور" و "الليل والنهار" و "الجن والإنس" في أكثر الآي، وفي بعضها "الإنس والجن"، وتقديم السماء على الأرض في الذكر، وتقديم الأرض عليها في بعض الآي، ونحو قوله – تعالى – "سميع عليم"، ولم يجئ "عليم سميع"، وكذلك "عزيز حكيم"، و "غفور رحيم" وفي آية أخرى "رحيم غفور" إلى غير ذلك مما لا يكاد ينحصر، وليس شيء من ذلك يخلو عن فائدة وحكمة؛ لأنه كلام الحكيم الخبير"[2]

وقد نقلت نص السهيلي – مع طوله – لأهميته في الكشف عن حقيقة هذا النوع من التقديم، والعجيب أن السهيلي في نصه هذا لم يتكلم عن النوع الآخر – التقديم في الرتبة – مع أنه يشرح عبارة سيبويه إن التقديم يأتي للعناية والاهتمام بالمقدم، والإمام سيبويه قال هذه العبارة في أثناء حديثه عن تقديم المفعول على الفاعل، أي التقديم في الرتبة.

وهذا النوع من التقديم بما يتطلبه من الاستجابة لأحوال المخاطبين، والوفاة بأغراض المتكلم ومراميه، هو المجال الأمثل لإبراز التفاوت بين أسلوب وأسلوب، وتفوق نظم على نظم، وللقرآن الكريم فيه من الافتنان والإبداع ما يشهد على إعجازه .

وقد حاول بعض الأعلام أن يضعوا ضوابط للتقديم في الذكر حتى يأتي ترتيب الألفاظ في الذكر مواكبا للحركة الذهنية، والانفعالات النفسية، ضماناً لحسن التواصل وسرعة الاستجابة بين المنشئ والمتلقى، للسهيلي في ذلك كلام طيب يقول فيه: "ما تقدم من الكلام فتقديمه في اللسان على حسب تقديم المعاني

---

[2]- أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي، نتائج الفكر في النحو للسهيلي(بيروت: دار الكتب العلمية، 1412ھ)،2/ 208 - 209 -

في الجنان، والمعاني تتقدم بأحد خمسة أشياء، إما بالزمان، وإما بالطبع، وإما بالرتبة، وإما بالسبب، وإما بالفضل والكمال، فإذا سبق من المعاني إلى الخلد والفكر بأحد هذه الأسباب الخمسة، أو بأكثرها سبق اللفظ الدال على المعنى السابق، وكان ترتيب الألفاظ بحسب ذلك." [3]

غير أن هذه الأسباب الخمسة أو العشرة كما وصلت عند الإمام السيوطي في "معترك الأقران"، ووصلت عند الزركشي إلى خمسة وعشرين سببا، لم تكن كافية في تفسير الكثير من مواطن التقديم والتأخير في الكتاب العزيز مما يخالف ترتيبه ظاهر هذه الأصول، والذي أميل إليه أن حصر العناية والاهتمام في أسباب محدودة أمر غير مطرد في كل التراكيب؛ لذا فالسبب المطرد هو ملاءمة التقديم أو التأخير للسياق، فالسياق هو الذي يكشف عن السر في تقديم هذه الكلمة في موضع، وتأخير الكلمة نفسها في موضع آخر، نتأمل معا بعض صور التقديم في الذكر الحكيم لندرك دقته وخفاء سره، وأثر السياق في الكشف عن سر تقديم ما قدم وتأخير ما أخر. نقرؤ قوله – تعالى -: "وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ" [4] و قوله – تعالى - : "وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ." [5]

وقد جعل الخطيب القزويني التقديم في الآيتين من التقديم في الرتبة، حيث ذكره في تقديم بعض معمولات الفعل على بعض، وليس التقديم في الآيتين من هذا النوع؛ لأن التقديم وقع في ذات الكلمتين، وليس في رتبتهما .

ففي آية الأنعام قدم الآباء على الأبناء؛ لأن الآباء في فقر محقق، بدليل قوله – تعالى -: "من إملاق" وعند تحقق الفقر يكون شأن أنفسهم أهم عندهم من شأن أبنائهم، فموضع الاهتمام هنا هو رزق الآباء، ولذا قدم. وفي آية الإسراء قدم الأبناء على الآباء؛ لأن الفقر متوقع بسبب وجود الأبناء، وليس واقعا، بدليل قوله – تعالى: "خشية إملاق"، فهم أغنياء، ولكنهم يخشون الفقر بسبب وجود الأبناء، فطمأنهم الحق – سبحانه- بأن من يخشون الفقر بسببهم قد تكفل الله برزقهم قبل رزقكم، فلم تخشون الفقر بسببهم، فموضع الاهتمام هنا هو رزق الأبناء، ولذا قدم .

قال أبو حيان تعليقاً على الآيتين: "في هذه الآية جاء "من إملاق" – آية الأنعام – فظاهره حصول الإملاق للوالد، لا توقعه وخشيته، وإن كان واحداً للمال، فبدأ أولاً بقوله: "نحن نرزقكم" خطاباً للآباء وتبشيراً لهم بزوال الإملاق، وإحالة الرزق على الخلاق الرزاق، ثم عطف عليهم الأولاد، وأما في الإسراء فظاهر التركيب

---

[3]- السهيلي، نتائج الفكر في النحو، ج 2/ 213 .

[4]الأنعام6: 151 .

[5] الإسراء17: 31 .

أنهم موسرون، وأن قتلهم إياهم إنما هو لتوقع حصول الإملاق والخشية منه، فبدئ فيه بقوله: "نحن نرزقهم" إخباراً بتكفله تعالى برزقهم، فلستم أنتم برازقيهم، وعطف عليهم الآباء." [6]

وقد يكون الغرض من التقديم الذكري الدلالة على المعنى المراد والغرض المقصود من الآية الكريمة، وتأخيره يخل بالمعنى ويوهم خلاف المراد، كما في قوله – تعالى -: "وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ." [7]

فقد وصف الرجل في هذه الآية الكريمة بثلاث صفات ألا وهي:

الإيمان، وكونه من آل فرعون، وكتمان إيمانه، وقدم من "آل فرعون" على "يكتم إيمانه"؛ لأنه لو أخر ليُتوهم أنه متعلق بـ "يكتم" وتدل الآية أن رجلاً كان مؤمنا يخفي إيمانه خوفا من آل فرعون، ولا تدل على كونه من آل فرعون وهذا ليس بمقصود من الآية الكريمة، إذا المراد منها إبراز عناية الله – تعالى -، ورعايته لموسى – عليه السلام – بأن جعل من آل فرعون من يدافع عنه ويجادلهم فيه ويناقشهم من أجله. وهذا الغرض لا يحصل إلا بما عليه الآية.

هذا ما أشار إليه الدكتور محمد محمد أبو موسى: "والمقدم هو قوله "من آل فرعون" وهو صفة رجل ولو أخره عن "يكتم إيمانه" وقال رجال مؤمن يكتم إيمانه من آل فرعون لتوهم أنه متعلق بيكتم، وأنه ليس صفة الرجل، فلا يفهم أن الرجل من آل فرعون." [8]

بعد تحليل الآية الكريمة يتبادر إلى ذهن القارئ سؤال ألا وهو لماذا هذا الرجل كان يكتم إيمانه؟ مع أنه كان من آل فرعون، وكان ولي عهد فرعون وصاحب شرطته، وكان عالماً بالنبوات وبالتأريخ ومؤمنا بما جاء به موسى – عليه السلام – منذ زمن.

والسحرة لم يكونوا من آل فرعون بل كانوا من بني إسرائيل، ولم يكونوا عالمين بالنبوات والتأريخ ولا مؤمنين بما جاء به موسى – عليه السلام – منذ زمن مقارنة به، ولكنهم لم يكتموا إيمانهم، وقد تهددهم فرعون بأشنع ضروب النكال وهم قلة مستضعفة، ولم يتراجعوا وأجابوا طغيانه وتسلطه وقوله لهم: "فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ." [9]

بقولهم "لا ضير" أي لا ضير علينا .

---

[6] أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، تحقيق- صوفي محمد جبريل(بيروت : دار الفكر، 1420 ه)، 4/ 687-

[7] غافر40: 28 .

[8] محمد محمد أبو موسى، خصائص التراكيب، دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني(مكتبة وهبة) , 405

[9] طه20: 71

الجواب: فيما أرى أن كتمان الإيمان يؤكد إن الرجل كان من آل فرعون، وكانت له رتبة عالية فيهم، وكان يعرف بحكمته أن إعلان إيمانه بموسى – عليه السلام – يحدث زلزالاً في أهل السطلة وكل ما في الدولة من قوانين ونظم وكهنة ووزراء وأعوان.

ولما رأى هذا الرجل الحكيم المثقف النظار آيات موسى – عليه السلام – لم يكذب على نفسه كما كذب فرعون وهامان وقارون، بل أنصف ودخل في دين الله، ثم دعته الحكمة، مساعدة موسى – عليه السلام – في الوقت المناسب الذي يكون في أشد الحاجة إليها، ألا يحدث هذا الزلزال، فلما رأى موسى – عليه السلام – معرضاً للخطر لم يكشف عن دخوله في الدين كشفا ظاهراً وإنما وارى ولوّح وعرّض ودخل بحسم لإنقاذ حياة موسى – عليه السلام – وسترى ذلك في الآية القادمة ألا وهي: "أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ."[10]

وشبيه بالتقديم في الحديث عن رجل مؤمن من آل فرعون التقديم في الحديث عن رجل مؤمن يسكن في أطراف المدينة وذلك في قوله – تعالى-: "وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين" في هذه الآية الكريمة تقديم الجار والمجرور ألا وهو "من أقصى المدينة" على الفاعل ألا وهو "رجلٌ" للدلالة على الأمور التالية:

الاحتراز عن توهم غير المراد

الآيات السابقة من هذه الآية تدل أن أصحاب القرية وصلوا إلى ذروة الإساءة في معاملتهم لرسل الله، لدرجة أنهم تطيروا بوجودهم، رغبوا عنهم فأرادوا إخراجهم من قريتهم وإلا فالرجم حتى الموت في انتظارهم، ومثل هذا يعطي انطباعاً سيئاً لدى السامع عن القرية كلها، فجاء قوله تعالى: "وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى"

لدفع هذا الانطباع المتوهم

يقول العلامة السكاكي: "فقدم لما كان أهم، يبين ذلك أنه حين أخذ في قصة الرسل، اشتمل الكلام على سوء معاملة أصحاب القرية الرسل، وأنهم أصروا على تكذيبهم، وانهمكوا في غوايتهم مستشرين على باطلهم، فكان مظنة أن يعلن السامع، على مجرى العادة، تلك القرية قائلا: ما أنكدها تربة، وما أسوأ منبتاً،

---

[10] غافر40: 28 .

ويبقى مجيلاً في فكره: أكانت تلك المدرة بحافاتها كذلك، أم كان هناك قطر دان أو قاص منبت خير، منتظراً لمساق الحديث، هل يلم بذكره؟ " [11]

ولو قلنا: "وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى..." لتوهم تعلق "من أقصى المدينة" بالفعل "يسعى" ويصبح المعنى: جاء رجل ساعياً من طرف المدينة وأقصاها، وليس هذا بمقصود، إنما المقصود إفادة أن هذا الرجل من أهل المدينة إلا أن سكناه في طرفها وأقصاها، فلا بد لنا من إقرار التعبير القرآني إذا أردنا المعنى الصحيح المقصود.

التقديم أعجب وأعظم في التبكيت والتوبيخ

إيمان هذا الرجل مع أنه لم يحضر موضع الدعوة، ولم يشهد المعجزات التي أيد بها الرسل الكرام موقفهم إيمان يقتضي الإعجاب والإكبار، أما موقف قومه فموقف يقتضي التبكيت والتوبيخ والإنكار، فتقديم "من أقصى المدينة" للدلالة على بعد المكان الذي جاء منه هذا الرجل، يقول الخطيب الإسكافي: "وحيث لا يقرب من مجاري القصة، ولا يحضر موضع الدعوة ومشهد المعجزة، فقدم ما تبكيت القوم به أعظم، والتعجب منه أكثر، فقال: "وجاء من أقصى المدينة رجل" ينصح لهم ما لا ينصحون مثله لأنفسهم، ولا ينصح لهم أقربوهم، مع أنه لم يحضر جميع ما يحضرونه، ولم يشهد من كلام الأنبياء ما يشهدونه، فبعثهم على اتباع الرسل المبعوثين إليهم، وقبول ما يأتون به من عند مرسلهم" [12] .

الدلالة على تساوي الأقصى مع الأدنى في الإيمان بالدعوة

قرب الدار أو بعدها لا أثر له في الإيمان، فقد يكفر القريب كما حدث من أهل القرية مع رسل عيسى عليه السلام، وكما حدث من أهل مكة مع رسول الله -ﷺ-، وقد يؤمن البعيد، فهذا صاحب ياسين قد آمن بالرسل مع أنه من أقاصي المدينة، وهؤلاء الأنصار قد آمنوا برسول الله -ﷺ- مع أنهم من سكان (يثرب) الأبعدون.

يقول صاحب ملاك التأويل: ووجه ذلك – والله أعلم – أن تقديم المجرور الذي هو قوله: "من أقصى المدينة" مشير إلى إحراز معنى جليل مطلع على حكم السوابق من إيمان من بعد مسافة عن داعيه إلى

---

[11] يوسف بن أبي بكر بن محمد السكاكي، مفتاح العلوم، تعليق- نعيم زرزور(بيروت:دار لكتب العلمية،1407ھ)، 344

[12] أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأصبهاني (الخطيب الإسكافي)، درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز، تحقيق وتعليق- د. محمد مصطفى آيدين(جامعة أم القرى: معهد البحوث العلمية بمكة المكرمة 1422ھ) ، 268

الهداية فلم يضره بُعد الدار، وكفر من باشر الرسل وشافههم فلم ينتفع بقرب الدار، وذلك بحسب ما قدر لكل من المكلفين وسبق له." [13]

النداء على البلاغ المبين للرسل

قوله –تعالى- قبل: "وما علينا إلا البلاغ المبين" فيه حسن تخلص من المشهد الأول في قصة تلك القرية المتعلق بحوار الرسل مع أهلها إلى المشهد الثاني الذي يحكى قصة "صاحب ياسين"، فبلاغ الرسل المبين قد أتى ثمرته في أقصى المدينة بدلالة "وجاء من أقصى المدينة رجل" وفي بيان هذه الصلة الوثيقة بين هاتين الآيتين يقول الفخر الرازي: "وفي فائدته وتعلقه بما قبله أنه بيان لكونهم أتوا بالبلاغ المبين حيث آمن بهم الرجل الساعي، وعلى هذا فقوله: "من أقصى المدينة" فيه بلاغة باهرة، وذلك لأنه لما جاء من أقصى المدينة رجل - وهو قد آمن - دل على أن إنذارهم وإظهارهم بلغ إلى أقصى المدينة" [14] .

الثناء على سعي المؤمنين في تصديق رسلهم

لا ينبغي أن يمر موقف ذلك الرجل دون إبراز لموقفه الذي يمثل موقف المؤمن من دعوة الرسول إليه حيث يصدق تصديقاً لا يخالجه شك "وحينما استشعر قلبه حقيقة الإيمان تحركت هذه الحقيقة في ضميره فلم يطق عليها سكوتاً، ولم يقبع في داره بعقيدته وهو يرى الضلال من حوله والجحود والفجور، ولكنه سعى بالحق الذي استقر في ضميره، وتحرك في شعوره، سعى به إلى قومه وهم يكذبون، ويجحدون ويتوعدون ويهددون، وجاء من أقصى المدينة يسعى ليقوم بواجبه في دعوة قومه إلى الحق، وفي كفهم عن البغي، وفي مقاومة اعتدائهم الأثيم الذي يوشكون أن يصبوه على المرسلين" [15] .

وظاهر أن هذا الرجل لم يكن ذا جاه أو سلطان فهو من عامة الناس يسكن في أطراف المدينة، أما الأعيان وأصحاب النفوذ فيسكنون وسطها، وقد يوجد الخير في الأطراف حيث لا تصد ساكنيه عن اتباع الحق حرصا على جاه أو سلطان، فهم – كما يقول صاحب التحرير والتنوير – أقرب إلى الاستقلال بالنظر، وقلة اكتراث بالآخرين، لأن سكان الأطراف غالبهم عملة أنفسهم لقربهم من البدو. " [16]

---

[13] أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي،ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، تحقيق- عبد الغني محمد علي الفاسي (بيروت:دار الكتب العلمية) 2/ 757

[14] أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن الملقب بفخر الدين الرازي التفسير الكبير(بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1420ھ)، 7 / 68

[15] سيد قطب، في ظلال القرآن(دار الشروق، 1423ھ) ، 5/ 2963 .

[16] محمد الطاهر بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي،التحرير والتنوير(تونس: الدار التونسية للنشر، 1984ھ) 2/ 365

ولعلك بهذا تكون قد اطلعت على بعض الفروق في مجرد تقديم متعلق على متعلق مما يقوي يقينك ببلاغة القرآن الكريم، قال صاحب المفتاح: "ولله در أمر التنزيل وإحاطته على لطائف الاعتبارات في إيراد المعنى على أنحاء مختلفة بحسب مقتضيات الأحوال، ولا ترى شيئا منها يراعى في كلام البلغاء من وجه لطيف إلا عثرت عليه مراعى فيه من ألطف وجوه ."[17]

وتأمل قوله – تعالى- :"وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ"

قد ورد في هذه الآية الكريمة عند العلامة الزمخشري التقديم في الذكر؛ لأن واقعة قتل النفس جرت قبل أمرهم بذبح البقرة، والسر في ذلك التشويق إلى معرفة السبب في ذبح البقرة، والتكرير في التقريع والتوبيخ، فهو يرى أنهما قصتان من حيث التقريع والتوبيخ على بني إسرائيل بسبب أعمالهم، فالأولى ألا وهي "وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ"تقريع على الاستهزاء برسول الله، وترك المسارعة إلى الامتثال بأمره، والاستقصاء في السؤال، ودالة على أن في ذبح البقرة من التقرب، وأداء التكاليف، واكتساب الثواب، والإشعار بحسن تقديم القربة على الطلب، وما في التشديد عليهم لتشديدهم من اللطف لهم، والآخرين في ترك التشديد، ونفع اليتيم بالتجارة الرابحة، وبيان أن من حق المتقرّب إلى ربه أن يتنوق في اختيار ما يتقرب به، وأن يختاره فتيّ السنّ غير قحم ولا ضرع، حسن اللون، بريئا من العيوب، يُونق من ينظر إليه، وأن يغالي بثمنه.

والثانية ألا وهي: "وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ" تقريع على قتل نفس المحرمة ودالة على الآية العظيمة آلا وهي مس الميت بالميت وحصول الحياة عقيبه.

وأنها قصة واحدة باعتبار الضمير الراجع إلى البقرة في قوله: "اضربوه ببعضها" وهي ذكرت في الآية السابقة بقوله: "إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة" وهذه هي القصة الأولى باعتبار التقريع والتوبيخ على بني إسرائيل.

ولو لم يرد التقديم الذكري في القصة وذكرت على ترتيب الوقوع لما دلت على تكرير التقريع والتوبيخ.

عليك بعبارته: "فإن قلت: فما للقصة لم تقص على ترتيبها؟ وكان حقها أن يقدم ذكر القتيل والضرب ببعض البقرة على الأمر بذبحها، وأن يقال: وإ قتلتم نفسا فادارأتم فيها، فقلنا: اذبحوا بقرة واضربوه ببعضها؟ قلت: كلُّ ما قُصّ من قصص بني إسرائيل إنما قُص تعديداً لما وجد منهم من الجنايات، وتقريعاً لهم عليها؛ ولما جُدِّد فيهم من الآيات العظام، وهاتان قصتان كل واحدة منهما مستقلة بنوع من التقريع، وإن كانتا متصلتين متحدتين، فالأولى لتقريعهم على الاستهزاء وترك المسارعة إلى الامتثال وما يتبع ذلك،

---

[17]- مفتاح العلوم، 114 .

والثانية: للتقريع على قتل النفس المحرمة وما تبعه من الآية العظيمة، وإنما قدمت قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتيل؛ لأنه لو عُمل على عكسه لكانت قصة واحدة، ولذهب الغرض في تثنية التقريع، ولقد روعيت نكتة بعد ما استؤنفت الثانية استئناف قصة برأسها وأن وصلت بالأولى، دلالة على اتحادهما بضمير البقرة لا باسمها الصريح في قوله: "اضربوه ببعضها"؛ حتى يتبين أنهما قصتان فيما يرجع إلى التقريع وتثنية بإخراج الثانية مخرج الاستئناف مع تأخيرها؛ وأنها قصة واحدة بالضمير الراجع إلى البقرة" [18].

وابن عاشور يخالف هذا التوجيه؛ لأنه مؤدية إلى تفكيك القصة إلى قصتين، تبدأ كل واحدة منهما بـ "وإذ"، ثم إن المذام تعرف بحكايتها، والتنبيه عليها بنحو قوله: "قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ " وقوله: "وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ" [19]، إذن فاعتراضه على ما جاء به العلامة الزمخشري ومن تبعه، مبني على تفكيك ترتيب القصة، وانعدام ترابطها، مع أن القرآن الكريم هو المثل الأعلى في ترابط كلماته وانسجام جمله وآياته بحيث صار وحدة واحدة لا ينفصم عراها، ولا يتناثر عقدها، بل هو "أجمل صورة حية، كل ذرة في خليتها، وكل خلية في عضوها، وكل عضو في جهازه، وكل جهاز في جسمه، ينادي بأنه قد أخذ مكانه المقسوم، وفقاً لخط جامع مرسوم، رسمه مربي النفوس ومزكيها.. فالقرآن في ترتيب آية لهو معجزة المعجزات" [20] .

فكل ما ورد في شأن البقرة من أمر بالذبح، وما استتبعه من حوار بين موسى وقومه في صفاتها، وما كان من أمر القتيل و تبعه من أمر الله لهم بضربه ببعضها، قصتان عند ابن عاشور:

الأولى: من قوله سبحانه : "وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ"، وهي بقرة مشروعة عند كل قتل نفس جهل قاتلها، وهي المشار إليها هنا.

الثانية: وهي من قوله سبحانه: "وإذ قتلتم نفسا..." وقد كانت واقعة قتل النفس في يوم ذبح البقرة، فأمروا أن يضربوا القتيل ببعضها التي شأنها أن تذبح عند جهل قاتل نفس.

---

[18] أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل(بيروت:دارالكتاب العربى، 1407ھ)، 1/ 144

[19] البقرة2: 71

[20] محمد بن عبد الله دراز، النباء العظيم، اعتنى به- أحمد مصطفى فضيلة(دار القلم للنشر والتوزيع 1426ھ)، 210، 211

عليك بعبارته: "وبذلك يظهر وجه ذكرهما قصتين، وقد أجمل القرآن ذكر القصتين؛ لأن موضع التذكير والعبرة منهما هو ما حدث في خلالهما لا تفصيل الوقائع، فكانت القصة الأولى تشريعا سبق ذكره لما قارنه من تلقيهم الأمر بكثرة السؤال الدال على ضعف الفهم للشريعة، وعلى تطلب أشياء لا ينبغي أن يظن اهتمام التشريع بها، وكانت القصة الثانية منة عليهم بآية من آيات الله ومعجزة من معجزات رسولهم بيّنها الله لهم؛ ليزدادوا إيمانا" [21] .

والذي أميل إليه أن تأويل العلامة الزمخشري أقوى من رأي ابن عاشور؛ لأن التقديم الذكري في الآية على تكرير التقريع مع الدلالة على المعنى الأصلي، وبدون التقديم في الذكر لا تدل الآية إلا على التوبيخ فحسب، وبهذا النوع من التقديم لا ينعدم الترابط بين كلمات القرآن الكريم والانسجام بين جمله وآياته؛ لأن التقديم الذكري كما وقع في هذه الآية الكريمة كذلك وقع في كثير من الآيات القرآنية دالاً على الأسرار البلاغية، وكتب البلاغيين ومقالاتهم في تناوله واستكشاف أسراره البلاغية خير شاهد على وجوده في الآيات القرآنية .

نتائج البحث

من خلال هذا المقال وصلت إلى عدة نتائج، ألا وهي:

1. التقديم ضربان: الأول يختص بدلالة الألفاظ على المعاني، ولو أخر المقدم، أو قدم المؤخر لتغير المعنى، هذا ما يسمى التقديم في الرتبة النحوية، والثاني: يختص بدرجة التقديم في الذكر، لاختصاصه بما يوجب له ذلك، ولو أخر لما تغير أصل المعنى.

2. حصر العناية والاهتمام في أسباب محدودة أمر غير مطرد في كل التراكيب؛ لذا فالسبب المطرد هو ملاءمة التقديم أو التأخير للسياق، فالسياق هو الذي يكشف عن السر في تقديم الكلمة في موضع، وتأخير الكلمة نفسها في موضع آخر.

3. قدم الآباء على الأبناء في سورة الأنعام؛ لأن الآباء في فقر محقق، فموضع الاهتمام فيها هو رزق الآباء ولذا قدم، وفي آية الإسراء قدم الأبناء على الآباء؛ لأن الفقر متوقع بسبب وجود الأبناء، وليس واقعاً، فموضع الاهتمام فيها هو رزق الأبناء، ولذا قدم .

---

[21]- التحرير والتنوير، 529/1

4. الغرض من تقديم "من آل فرعون" على "يكتم إيمانه" في قوله – تعالى-: "وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ" [22]. إبراز عناية الله – تعالى – ورعايته لموسى – عليه السلام- بأن جعل من آل فرعون من يدافع عنه ويجادلهم فيه ويناقشهم من أجله.

5. تقديم "من أقصى المدينة" على الفاعل في قوله – تعالى- : "وجاء رجل من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين" للدلالة على الاحتراز عن توهم غير المراد، وللدلالة على أن التقديم أعجب وأعظم في التبكيت والتوبيخ، وللدلالة على تساوي الأقصى مع الأدنى في الإيمان بالدعوة.

6. في قوله – تعالى-: "وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ"التقديم في الذكر عند العلامة الزمخشري؛ لأن واقعة قتل النفسي جزئي قبل أمرهم بذبح البقرة، والعلامة ابن عاشور يخالف هذا التوجيه، لأن مؤدية إلى تفكيك القصة، وانعدام ترابطها، مع أن القرآن الكريم هو المثل الأعلى في ترابط كلماته و انسجام جمله وآياته بحيث صار وحدة واحدة لا ينفصم عراها، ولا يتناثر عقدها .

---

[22] غافر40: 28